المنتقي من كتاب تلبيس إبليس لابن الجوزي

جمع
فهد بن عبدالعزيز بن عبدالله الشويرخ

جميع حقوق الطبع والنشر لكل مسلم

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين, والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين, نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين...أما بعد: فأكبر عدو للإنسان في هذه الحياة الشيطان الرجيم, الذي يسعى سعياً حثيثاً في إضلال بني آدم, بطرق ووسائل شتى.

وقد حذر العلماء من مكره وصنوف غروره, ومن هؤلاء: الإمام ابن الجوزي رحمه الله في كتابه" تلبيس إبليس " فكان كما قال محقق الكتاب الدكتور أحمد بن عثمان المزيد: من أجمع ما كتب في هذا الباب...فقد أتى على ذكر أغلب صور التلبيس التي يكيد بها إبليس بني آدم.

والشيطان لا يترك أحداً لا يلبس عليه – نسأل الله أن يحفظنا من كيده وشره – ففي كتاب ابن الجوزي رحمه الله مآخذ, يقول الدكتور أحمد المزيد: "رغم ما لكتاب " تلبيس إبليس " من مزايا, فإنه لم يخلُ –مع ذلك– من مآخذ ونقائص.من ذلك: وقوع مؤلفه في أخطاء عقدية, حيث خالف في تقريرها منهج السلف, وقد علقت على ذلك في مواضعه من التحقيق.وهذا مأخذ كبير على المؤلف والكتاب."

والكتاب من أشهر كتب ابن الجوزي رحمه الله, ويوجد فيه فوائد, يسر الله الكريم لي فانتقيتُ بعضها, أسأل الله أن ينفع بها, ويبارك فيها.

الباب الأول: في الأمر بلزوم السنة والجماعة

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: (من أحب منكم أن ينال بحبوحة الجنة فليزم الجماعة, فإن الشيطان مع الواحد, وهو مع الاثنين أبعد) قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

قال الأوزاعي: اصبر نفسك على السنة, وقف حيث وقف القوم, وقُل بما قالوا, وكُفَّ عما كفَّوا عنه, واسلك سبيل سلفِك الصالح, فإنهُ يسعُك ما وسِعهم.

قال سفيان: لا يستقيم قول إلا بعمل, ولا يستقيم قول وعمل إلا بنية[٥] ولا يستقيم قول وعمل ونية إلا بموافقة السنة.

قال سفيان: إذا بلغك عن رجل بالمشرق أنه صاحب سُنةٍ فابعث إليه بالسلام, وإذا بلغك عن آخر بالمغرب أنه صاحب سنة فابعث إليه بالسلام, فقد قلَّ أهل السنة والجماعة.

قال أيوب: إني لأخبرُ بموت الرجُلِ من أهل السُّنة, فكأني أفقدُ بعض أعضائي.

عن ابن شوذب: إنَّ من نعمة الله على الشاب إذا نسك (تعبد) أن يؤاخي صاحب سُنة يحمله عليها.

عن سفيان الثوري قال: استوصوا بأهل السنة خيراً فإنهم غرباء.

قال الجنيد: الطُّرُق كُلها مسدودة على الخلق, إلا من اقتفى أثر الرسول, واتبع سُنته, ولزم طريقته, فإن طرق الخيرات كلها مفتوحة عليه.

الباب الثاني: في ذم البدع والمبتدعين

عن عائشة قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من فعل أمراً ليس عليه أمرنا فهو رد) أخرجاه في الصحيحين. وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (من رغب عن سُنتي فليس مِنّي) نفرد بإخراجه البخاري.

عن العرباض بن سارية قال: وعظنا رسول الله صلى الله عليه وسلم موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب فقال قائل: يا رسول الله كأن هذه موعظة مودع فماذا تعهد إلينا ؟ فقال: (أوصيكم بتقوى الله, والسمع والطاعة وإن عبداً حبشياً, فإنه من يعش بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً, فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهدين, تمسكوا بها, وعضوا عليها بالنواجذ, وإياكم ومحدثات الأمور, فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة.) قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

عن ابن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسم: (أنا فرطكم على الحوض, وليختلجن رجال دوني, فأقول: يا ربي أصحابي, فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك.) أخرجاه في الصحيحين.

كان ابن طاوس جالساً وعنده ابنه فجاء رجل من المعتزلة فتكلم في شيء, فأدخل ابن طاوس أصبعيه في أذنيه, وقال: يا بني أدخل أصبعك في أذنيك حتى لا تسمع من قوله شيئاً, فإن هذا القلب ضعيف, ثم قال: أي بني اسدد, فما زال يقول: اسدد حتى قام الآخر.

كان رجل يختلف إلى إبراهيم, فبلغ إبراهيم أنه قد دخل في الإرجاء, فقال له إبراهيم: إذا قمتَ من عندنا فلا تعُد. وقيل لسفيان بن عيينه: إن هذا يتكلم في القدر, فقال: عرِّفوا الناس أمرهُ وسلُوا ربكم العافية.

دخل رجل على ابن سيرين, ففتح باباً من أبواب القدر فتكلم فيه, فقال ابن سيرين: إما أن تقوم وإما أن نقوم.

قال رجل من أهل الأهواء لأيوب: أكلمك بكلمة؟ قال:لا, ولا نصف كلمة.

قال سفيان الثوري: البدعة أحب إلى إبليس من المعصية, المعصية يُتاب منها, والبدعة لا يُتاب منها.قال فيضل بن عياض: من جلس إلى صاحب بدعة فاحذروه.

فصل

فإن قائل: قد مدحت السنة وذممت البدعة, فما السنة والبدعة؟ فإنا نرى كلَّ مبتدع في زعمنا يزعم أنه من أهل السنة.

فالجواب: أن السنة في اللغة الطريق, ولا ريب أن أهل النقل والأثر المتبعين آثار رسول الله صلى الله عليه وسلم وآثار أصحابه هم أهل السنة, لأنهم على تلك الطريق التي لم يحدث فيها حادث, وإنما وقعت الحوادث والبدع بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه.

والبدعة عبارة عن فعل لم يكن فابتدع, والأغلب في المبتدعات أنها تصادم الشريعة بالمخالفة, إذ توجب التعاطي عليها بزيادة أو نقصان.

فصل:

عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم: (تفرقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة, أو [ثنتين] وسبعين, والنصارى مثل ذلك, وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة) قال الترمذي: هذا حديث صحيح.

وقد ذكرنا هذا الحديث في الباب الذي قبله وفيه: كلهم في النار إلا ملة واحدة. قالوا: من هي يا رسول الله؟ قال: (ما أنا عليه وأصحابي)

الباب الثالث: في التحذير من فتن إبليس ومكايده

اعلم أن الآدمي لما خُلق رُكِّب فيه الهوى والشهوة ليجتلب بذلك ما ينفعه, ووضع فيه الغضب ليدفع به ما يؤذيه, وأُعطي العقل كالمؤدب يأمره بالعدل فيما يجتلب ويجتنب, وخُلق الشيطان محرضاً له على الإسراف في اجتلابه واجتنابه, فالواجب على العاقل أن يحذر حذره من هذا العدو الذي أبان عداوته من زمن آدم, وقد بذل نفسه وعمره في إفساد أحوال بني آدم.

وقد أمر الله عز وجل بالحذر منه فقال: ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ * إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٦٩]

وقال: ﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ ﴾ [البقرة:٢٦٨]

وقال: ﴿ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ [النساء:٦٠]

وقال: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ [المائدة:٩١]

وقال: ﴿ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴾ [القصص:١٥] وقال: ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ [فاطر:٦]

وقال: ﴿ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴾ [لقمان:٣٣] وفي القرآن من هذا كثير.

فصل:

ينبغي أن يعلم أن إبليس الذي شغله التلبيس أول ما التبس الأمر عليه, فأعرض عن النصح الصريح على السجود, وأخذ يفاضل بين الأصول, فقال: ﴿ خَلَقْتَنِي مِن نارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾ [الأعراف:١٢] ثم أردف ذلك بالاعتراض على الملك الحكيم

فقال: ﴿ أَرَأَيتَكَ هـذَا الَّذي كَرَّمتَ عَلَيَّ﴾ [الإسراء:٦٢] والمعنى أخبرني لِمَ كرمتهُ, غور هذا الاعتراض أن الذي فعلت ليس بحكمه, ثم أتبع ذلك بالكبر.فقال: ﴿ أَنا خَيرٌ مِنهُ﴾ [الأعراف:١٢] ثم امتنع من السجود, فأهان نفسه التي أراد تعظيمها باللعنة والعقاب.

فمتى سوَّل للإنسان أمراً فينبغي أن يحذر منه أشد الحذر, وليقُل له حين أمره إياه بالسوء: إنما تريدُ بما تأمرني به نصحي ببلوغ شهوتي, وكيف يصح صواب النصح للغير لمن لم ينصح نفسه ؟ ثم كيف أثق بنصيحة عدو, فانصرف فما لقولك منفذ.

عن جابر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن إبليس يضع عرشه على الماء, ثم يبعث سراياه, فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة, يجيءُ أحدهم فيقول: فعلتُ كذا وكذا, فيقول: ما صنعت شيئاً, قال: ويجيء أحدهم فيقول: ما تركته حتى فرقت بينه وبين أهله, فيدنيه أو قال: فليتزمه ويقول: نعم أنت)

وعن جابر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن إبليس قد يئس أن يعبده المصلون ولكن في التحريش بينهم) انفرد بإخراج هذا الحديث والذي قبله مسلم, وفي لفظ حديثه: (قد يئس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ومن أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن) فقالوا: وأنت يا رسول الله؟قال: (وأنا إلا أن الله أعانني عليه فأسلم فليس يأمرني إلا بخير)

الباب الرابع: في معنى التلبيس والغرور

التلبيس إظهار الباطل في صورة الحق, والغرور نوع جهل يُوجب اعتقاد الفاسد صحيحاً والردئ جيداً, وسببه وجود شبهه أوجبت ذلك, وإنما يدخل إبليس على الناس بقدر ما يمكنه ويزيد تمكُّنه منهم ويقلُّ على مقدار فطنهم وغفلتهم وجهلهم

الباب الخامس: في ذكر تلبيسه في العقائد والديانات

دخل إبليس على هذه الأمة في عقائدها من طريقين:

أحدهما: التقليد للآباء والأسلاف...فزيّن للمُقلِّدين أن الأدلة قد تشتبه, والصواب قد يخفى والتقليد سليم, وقد ضلَّ في هذا الطريق خلق كثير وبه هلاكُ عامة الناس.

وقد ذم الله سبحانه الواقفين مع تقليد آبائهم وأسلافهم فقال تعالى: ﴿ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الزخرف:٢٢] وقال تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ * فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾ [الصافات:٦٩-٧٠]

واعلم أن المقلد على غير ثقةٍ مما قلَّد فيه, وفي التقليد إبطالُ منفعة العقل, لأنه إنما خُلِقَ للتأمل والتدبُّر, قبيح بمن أُعطي شمعةً يستضيءُ أن يطفئها ويمشي في الظُّلم.

واعلم أن عموم أصحاب المذاهب يعظم في قلوبهم الشخص فيتبعون قوله من غير تدبر لما قال, وهذا عين الضلال, لأن النظر ينبغي أن يكون إلى القول لا إلى القائل.

أما الطريق الثاني: فإن إبليس كما تمكن من الأغبياء فورطهم في التقليد..رأى خلقاً فيهم نوع ذكاء وفطنة فاستغواهم على قدر تمكنهم منهم.

فمنهم من قبَّح عنده الجمود على التقليد وأمره بالنظر ثم استغوى كلاً من هؤلاء بفنٍ, فمنهم: من أراه أن الوقوف مع ظواهر الشرائع عجز, فساقهم إلى مذاهب الفلاسفة, ولم يزل بهؤلاء حتى خرجوا عن الإسلام.

ومنهم من حسن له أن لا يعتقد إلا ما أدركته حواسه.

ومنهم من نفرهُ إبليس عن التقليد وحسن له الخوض في علوم الكلام, والنظر في أوضاع الفلاسفة ليخرج بزعمه عن غمار العوام.

ولم يسكت القدماء من فقهاء هذه الأمة عن الكلام عجزاً, ولكنهم رأوا أنه لا يشفي غليلاً ثم يرد الصحيح عليلاً, فأمسكوا عنه ونهوا عن الخوض فيه, حتى قال الشافعي: لأن يبتلى العبد بكل ما نهى الله عنه ما عدا الشرك خير له من أن ينظر في الكلام, وقال أحمد بن حنبل: لا يفلح صاحب كلامٍ أبداً, علماء الكلام زنادقة.

وكيف لا يُذمُّ الكلام وقد أفضى بالمعتزلة إلى أنهم قالوا: إن الله لا يعلمُ جُمَلَ الأشياء ولا يعلم تفاصيلها.

فأعوذ بالله من نظرٍ وعلومٍ أوجبت هذه المذاهب القبيحة, وقد زعم أرباب الكلام أنه لا يتمُّ الإيمان إلا بمعرفة ما رتبوه, وهؤلاء على الخطأ, لأن الرسول صلى الله عليه وسم أمر بالإيمان, ولم يأمر ببحث المتكلمين, ودرجت الصحابة الذين شهد لهم الشارع بأنهم خير الناس على ذلك.

وقد نقل إلينا إقلاع متيقظي المتكلمين عما كانوا عليه لما رأوا من قبح غوائله.

فصل

فإن قائل: قد عبت طريق المقلدين في الأصول وطريق المتكلمين فما الطريق السليم من تلبيس إبليس؟

فالجواب: أنه ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه وتابعوهم بإحسان, من إثبات الخالق سبحانه, وإثبات صفاته على ما وردت بها الآيات والأخبار, من غير تنقير ولا بحث عما ليس في قوة البشر إدراكه, وأن القرآن كلام الله غير مخلوق.

ذكر تلبيس إبليس على الخوارج

أول الخوارج وأقبحهم حالاً ذو الخويصرة.

عن أبي سعيد الخدري, قال: بعث علي من اليمن إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بذهبة...فقسمها رسول الله بين أربعة...فوجد من ذلك بعض أصحابه والأنصار وغيرهم, فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ألا تتمنوني وأنا أمين من في السماء.يأتيني خبر السماء صباح مساء) ثم أتاه رجل غائر العينين, مشرف الوجنتين, ناشز الجبهة, كثُّ اللحية, مُشمِّرُ الإزار, محلوق الرأس, فقال: اتّقِ الله يا رسول الله, فرفع رأسه إليه, وقال: (ويحك أليس أحق الناس أن يتقى الله أنا) ثم أدبر, فقال: يا رسول الله ألا أضرب عُنُقهُ, فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (فلعله يصلي) فقال: إنه رُبَّ مُصلٍّ يقول بلسانه ما ليس في قلبه. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إني لم أؤمر أن أنقب على قلوب الناس, ولا أشقَّ بطونهم) ثم نظر إليه النبي صلى الله عليه وسلم وهو مُقفٍّ, فقال: (إنه سيخرج من ضئضيء هذا قوم يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم, يمرقون من الدين كما يمرقُ السهمُ من الرَّميَّة.)هذا الرجل يقال له: ذو الخُويصرة التميمي وفي لفظ: أنه قال: اعدل فقال: (ويلك ومن يعدل) فهذا أول خارجي خرج في الإسلام, وآفته أنه رضي برأي نفسه, ولو وفق لعلم أنه لا رأي فوق رأي رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وأتباع هذا الرجل الذين قاتلوا علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

ولا أعجب من اقتناع هؤلاء بعلمهم واعتقادهم أنهم أعلم من علي عليه السلام, فقد قال ذو الخويصرة لرسول الله صلى الله عليه وسلم: اعدل فما عدلت, وما كان إبليس ليتهدي إلى هذه المخازي, نعوذ بالله من الخذلان.

ذكر تلبيسه على الرافضة

وكما لبَّس إبليسُ على هؤلاء الخوارج حتى قاتلوا علي بن أبي طالب رضي الله عنه, حمل آخرين على الغلو في حُبِّهِ فزادوه على الحد, فمنهم من كان يقول: هو الإله, ومنهم من يقول: هو خير من الأنبياء, ومنهم من حمله حبّه على سب أبي بكر وعمر, حتى أن بعضهم كفَّر أبا بكر وعمر, إلى غير ذلك من المذاهب السخيفة التي يُرغبُ عن تضييع الزمان بذكرها.

وقد روينا أن الشيعة طالبت زيد بن علي بالتبري ممن خالف علياً في إمامته فامتنع من ذلك, فرفضوه فسموا الرَّافضة.

قال ابن عقيل: الظاهر أن من وضع مذهب الرافضة قصد الطعن في أصل الدين والنبوة, وذلك أن الذي جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر غائب عنّا, وإنما نثقُ في ذلك بقول السلف...فإذا قال قائل: إنهم أول ما بدأوا بعد موته بظلم أهل بيته في الخلافة, وابنته في إرثها,...فإذا قالت الرافضة: إن القوم استحلوا هذا بعده, خابت آمالنا في الشرع, لأنه ليس بينا وبينه إلا النقل عنهم والثقة بهم.

وغلو الرافضة في حُبِّ علي عليه السلام, حملهم أن وضعوا أحاديث كثيرة في فضائله أكثرها تشينُهُ وتؤذيه, وقد ذكرت منها جملة في كتاب الموضوعات.

ومقابح الرافضة أكثرُ من أن تحصى, وقد حرموا الصلاة لكونهم لا يغسلون أرجلهم في الوضوء, والجماعة لطلبهم إماماً معصوماً, وابتُلُوا بسببِ الصحابة.وفي الصحيحين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: (لا تسبوا أصحابي فإن أحدكم لو أنفق مثل أُحد ذهباً, ما أدرك مُدَّ أحدهم ولا نصيفه.)

ذكر تلبيس إبليس على الباطنية

الباطنية: قوم تستروا بالإسلام ومالوا إلى الرفض, وعقائدهم وأعمالهم تُباين الإسلام بمرة, فمحصول قولهم تعطيل الصانع وإبطال النبوة والعبادات وإنكار البعث, ولكنهم لا يظهرون هذا في أول أمرهم, بل يزعمون أن الله حق, ومحمد رسول الله, والدين صحيح, ولكنهم يقولون: لذلك سِر غير ظاهر, وقد تلاعب بهم إبليس فبالغ وحسَّن لهم مذاهب مختلفة, ولهم أسماء: الباطنية, الإسماعيلية, القرامطة

فصل:

اعلم أن القوم أرادوا الانسلال من الدين فشاورا جماعة من المجوس..وملحدة الفلاسفة في استنباط تدبير يُخفف عنهم ما نابهم من استيلاء أهل الدين عليهم, حتى اخرسوهم عن النطق بما يعتقدونه من إنكار الصانع, وتكذيب الرسل, وجحد البعث, وزعمهم أن الأنبياء مُخرقُون, ومُنمسون.

ورأوا أمر محمد صلى الله عليه وسلم قد استطار في الأقطار, وأنهم قد عجزوا عن مقاومته, فقالوا: سبيلنا أن ننتحل عقيدة طائفةٍ من فرقهم, أركّهم عقولاً, وأسخفهم رأياً, وأقبلهم للمُحالات, والتصديق بالأكاذيب, وهم الروافض فنتحصن بالانتساب إليهم, ونتودد إليهم بالحزن على ما جرى على آل محمد من الظلم والذل, ليُمكننا شتمُ القدماء الذين نقلوا إليهم الشريعة, فإذا هان أولئك عندهم لم يلتفتوا إلى ما نقلوه, فأمكن استدراجهم إلى الانخلاع عن الدين, فإن بقي منهم معتصم بظواهر القرآن والأخبار أوهمناه أن تلك الظواهر لها أسرار وبواطن وأن الانخداع بظواهرها حمق, وإنما الفطنة في اعتقاد بواطنها, ثم نبُثُّ إليهم عقائدنا ونزعم أنها المراد بظواهرها عندهم فإذا تكثر بهؤلاء سهَّل علينا استدراج باقي القوم

الباب السادس: في ذكر تلبيس إبليس على العلماء في فنون العلم

تلبيسه على القراء:

فمن ذلك أن أحدهم يشتغل بالقراءات الشاذة وتحصيلها, فيبقى أكثر عمره في جمعها, وتصنيفها والإقراء بها, ويشغله ذلك عن معرفة الفرائض والواجبات...ولو تفكروا لعلموا أن المراد حفظ القرآن, وتقويم ألفاظه, ثم فهمه ثم العمل به, ثم الإقبال على ما يصلح النفس ويطهر أخلاقها, ثم التشاغل بالمهم من علوم الشرع.

تلبيسه على أهل اللغة والأدب:

قد لبس على جمهورهم فشغلهم بعلوم النحو واللغة عن المهمات اللازمة التي هي فرض عين, من معرفة ما يلزمهم عرفانه من العبادات, ومما هو أولى بهم من آداب النفوس وصلاح القلوب, ومما هو أفضل من علوم التفسير والحديث والفقه, فأذهبوا الزمان كله في علوم لا تُرادُ لنفسها بل لغيرها

تلبيسه على الشعراء:

تراهم يهيمون في كل واد من الكذب والقذف والهجاء..والإقرار بالفواحش, وأقلُّ أحوالهم أن الشاعر يمدح الإنسان فيخاف أن يهجوه فيعطيه اتقاء شره....وترى خلقاً من الشعراء وأهل الأدب لا يتحاشون عن..الذب في المدح خارجاً عن الحد.

فصل:

وقد لبس على قوم من المُحكمين للعلم والعمل...فحسن لهم الكبر بالعلم, والحسد للنظير, والرياء لطلب الرياسة,..وعلاج هذا لمن وفق إدمان النظر في إثم الكبر والحسد والرياء,..ومن نظر في سير السلف من العلماء والعاملين احتقر نفسه فلم يتكبر, ومن عرف الله لم يُرَاءِ ومن لاحظ جريان أقداره على مقتضى إرادته لم يحسد

الباب السابع: في ذكر تلبيس إبليس على الولاة والسلاطين

قد لَبَّس عليهم إبليس من وجوهٍ كثيرة نذكر أُمهاتها

الأول: أنه يريهم أن الله عز وجل يحبكم, ولولا ذلك ما ولاكم سلطانه وجعلكم نواباً عنه في عباده, وينكشف هذا التلبيس بأنهم إن كانوا نواباً عنه في الحقيقة فليحكموا بشرعه وليتبعوا مراضيه, فحينئذ يُحبهم لطاعتهم.

الثاني: أنه يقول لهم: الولاية تفتقر إلى هيبة, فيتكبرون عن طلب العلم ومجالسة العلماء فيعملون بآرائهم فيتلف الدين.

الثالث: أنه يخوفهم الأعداء ويأمرهم بتشديد الحجاب فلا يصل أهلُ المظالم, ويتوانى من جعل بصدد رفع المظالم.

الرابع: أنهم يستعملون من لا يصلح ممن لا علم عنده ولا تقوى.

الخامس: أنه يُحسِّنُ لهم العمل برأيهم, فيقطعون من لا يجوز قطعه, ويقتلون من لا يحلُّ قتله, ويوهمهم أن هذه سياسة.

السادس: أنه يُحسنُ إليهم الانبساط في الأموال ظانين أنها بحكمهم, وهذا تلبيس يكشفه وجوب الحَجرِ على المُفرطِ في مال نفسه فكيف بالمُستأجر في حفظ مال غيره, وإنما له من المال بقدر عمله فلا وجه للانبساط.

السابع: أنه يُحسنُ لهم الانبساط في المعاصي, ويُلبسُ عليهم بأن حفظكم للسبيل وأمن البلاد بكم يدفعُ عنكم العقاب.

الثامن: أنه يلبس على أكثرهم بأنه قد قام بما يجبُ من جهة أن ظواهر الأحوال مستقيمة, ولو حقق النظر لرأى اختلالاً كثيراً.

التاسع: أنه يُحسن لهم التصدق بعد الغصب يُريهم أن هذا يمحو ذلك.

العاشر: أنه يُحسنُ لهم استجلاب الأموال واستخراجها بالضرب العنيف أو أخذ كل ما يملكه الخائن, وإنما الطريق إقامة البينة على الخائن واستحلافه.

الحادي عشر: أنه يُحسن لهم مع الإصرار على المعاصي زيارة الصالحين, وسؤالهم الدُّعاء ويريهم أن هذا يخففُ ذلك الإثم.

الثاني عشر: أن من الولاة من يعملُ لمن فوقه فيأمره بالظلم فيظلمُ, ويُلبسُ عليه إبليس بأن الإثم على الأمراء لا عليك, وهذا باطل لأنه مُعين على الظلم, وكل معين على المعاصي عاصٍ.

قال مالك بن دينار: كفى بالمرء خيانةً أن يكون أميناً للخونة.

الباب الثامن: في ذكر تلبيس إبليس على العباد في العبادات

فأول تلبيسه عليهم إيثارهم التعبد على العلم, والعلم أفضل من النوافل, فأراهم أن المقصود من العلم العمل, وما فهموا من العمل إلا عمل الجوارح, وما علموا أن العلم عمل القلب, وعمل القلب أفضل من عمل الجوارح.

قال مطرف بن عبدالله: فضلُ العلم خير من فضل العبادة.

وقال المعافى بن عمران: كتابةُ حديثٍ واحدٍ أحبُّ إلي من صلاة ليلة.

فلما مر عليهم هذا التلبيس, وآثروا التعبد بالجوارح على العلم, تمكن من التلبيس عليهم في فنون التعبد.

تلبيسه عليهم في الوضوء:

فمنهم من لبس عليه في النية فتراه يقول: أرفعُ الحدث, ثم يقول: أستبيحُ الصلاة, ثم يعيد فيقول: أرفع الحدث, وسبب هذا التلبيس الجهلُ بالشرع, لأن النية بالقلب لا باللفظ, فتكلف اللفظ أمر لا يحتاج إليه ثم لا معنى لتكرار اللفظ.

تلبيسه عليهم في الأذان:

من ذلك التلحين في الأذان, وقد كرهه مالك بن أنس وغيره من العلماء كراهية شديدة, لأنه يخرجه عن موضوع التعظيم إلى مشابهة الغناء, ومنه أنهم يخلطون الأذان للفجر بالتذكير والتسبيح والمواعظ, ويجعلون الأذان وسطاً فيختلط. وقد كره العلماء كُلَّ ما يُضافُ إلى الأذان.

تلبيسه عليهم في الصلاة:

فمن ذلك تلبيسه عليهم في الثياب التي يستتر بها, فترى أحدهم يغسل الثوب الطاهر مراراً, وربما لمسه مسلم فيغسله.

ومن الموسوسين من يقطر عليه قطرة ماء فيغسل الثوب كله, وربما تأخر لذلك عن صلاة الجماعة...ولا يظنن ظان أني أمنع من النظافة والورع ولكن المبالغة الخارجة عن حدِّ الشرع المضيعة للزمان هي التي أنهى عنها.

ومن ذلك تلبيسه عليهم في نية الصلاة, فمنهم من يقول: أصلى صلاة كذا ثم يعيد هذا ظناً منه أنه قد نقض النية, والنية لا تنتقض..ومنهم من يكبر ثم ينقض ثم يكبر ثم ينقض...والشريعة سمحة سهلة سليمة من هذه الآفات, وما جرى لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولا لأصحابه شيء من هذا.

وكشف هذا التلبيس أن يقال للموسوس: إن كنت تريد إحضار النية فالنية حاضرة لأنك قمت لتؤدى الفريضة وهذه هي النية ومحلها القلب لا اللفظ. فإن كنت تريد تصحيح اللفظ, فاللفظ لا يجب, ثم قد قلته صحيحاً, فما وجه الإعادة؟ أفتراك تظنُّ وقد قلت إنك قلت؟! هذا مرض!.

ولقد حكى لي بعض الأشياخ عن ابن عقيل حكاية عجيبة, أن رجلاً لقيه فقال: إني أغسلُ وأقول ما غسلته, وأُكبرُ وأقول: ما كبرتُ. فقال له ابن عقيل: دع الصلاة فإنها ما تجب عليك, فقال قوم لابن عقيل: كيف تقول له هذا؟ فقال لهم: قد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (رفع القلم عن المجنون حتى يفيق) ومن يُكبّرُ ويقولُ: ما كبرتُ فليس بعاقل, والمجنون لا تجبُ عليه الصلاة.

وقد لبس إبليس على قوم فتركوا كثيراً من السنن لواقعات وقعت لهم. فمنهم من كان يتأخر عن الصف الأول ويقول: إنما أراد قُرب القلوب, ومنهم من لم يضع يداً على يد في الصلاة, وقال: أكره أن أُظهر من الخشوع ما ليس في قلبي.

وهذا أمر أوجبه قلةُ العلم.

-(١٨)

وقد لبس على قوم من المتعبدين فكانوا يبكون والناس حولهم وهذا قد يقع غلبة, فلا يمكن دفعه, فمن قدر على ستره فأظهره فقد تعرض للرياء.

وقد لبس على جماعة من المتعبدين فتراهم يصلُّون الليل والنهار, ولا ينظرون في إصلاح عيب باطن, ولا مطعم, والنظر في ذلك كان أولى بهم من كثرة التنفل.

تلبيسه عليهم في قراءة القرآن:

وقد لبس على قوم بكثرة التلاوة, فهم يهذون هذاً من غير ترتيل ولا تثبت, وهذه حاله غير محمودة, قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (من لم يفقه من قرأ القرآن في أقل من ثلاث)

تلبيسه عليهم في الصوم:

منهم من يلازم الصوم ولا يبالي على ماذا أفطر, ولا يتحاشى في صومه عن غيبة ولا عن نظره ولا عن فضول كلمة, وقد خيَّل له إبليس أن صومك يدفعُ إثمك, وكل هذا من التلبيس.

تلبيسه عليهم في الحج:

قد يسقط الإنسان الفرض بالحج مرة, ثم يعود لا عن رضاء الوالدين وهذا خطأ, وربما خرج وعليه ديوان أو مظالم, وربما خرج للنزهة, وربما حج بمال فيه شبهة, ومنهم من يحب أن يُتلقَّى, ويقال: الحاجُّي.

تلبيسه على الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر

يلبس إبليس على بعض المتعبدين فيرى منكراً ولا ينكره, ويقول: إنما يأمر وينهى من قد صلح وأنا ليس بصالح فكيف آمر غيري, وهذا غلط لأنه يجب عليه أن يأمر وينهى ولو كانت تلك المعصية فيه, إلا أنه متى أنكر متنزهاً عن المنكر أثَّر إنكاره.

الباب التاسع: في ذكر تلبيس إبليس على الزهاد

قد يسمع العامي ذم الدنيا في القرآن والأحاديث فيرى أن النجاة تركها, ولا يدري ما الدنيا المذمومة, فيلبس عليه إبليسُ: بأنك لا تنجو في الآخرة إلا بترك الدنيا, فيخرج على وجهه إلى الجبال, فيبعد عن الجمعة والجماعة, والعلم, ويصير كالوحش, ويخيل إليه أن هذا هو الزهد الحقيقي.

وإنما يتمكن إبليس من التلبيس على هذا لقلة علمه, ومن جهله رضاه عن نفسه بما تعلم, ولو أنه وفق لصحبة فقيه يفهم الحقائق لعرفه أن الدنيا لا تُذمُّ لذاتها, وكيف يذمُّ ما منَّ الله تعالى به, وما هو ضرورة في بقاء الآدمي, وسبب في إعانته على تحصيل العلم والعبادة, من مطعم, ومشرب, وملبس, ومسجد يصلي فيه, وإنما المذموم أخذُ الشيء من غير حِلّه, أو تناوله على وجه السرف لا على مقدار الحاجة, وتصرف النفس فيه بمقتضى رعوناتها لا بإذن الشرع.

ومن تلبيسه على الزهاد: إعراضهم عن العلم شغلاً بالزهد, فقد استبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير, وبيان ذلك أن الزاهد لا يتعدى نفعُهُ عتبه بابه, والعالم نفعه مُتعدٍّ, وكم قد ردّ إلى الصواب من متعد.

ومن تلبيسه عليهم: أنه يوهمهم أن الزهد ترك المباحات فمنهم لا يزيد على خبز الشعير, ومنهم من لا يذوق الفاكهة, ومنهم من يقلل المطعم حتى يبس بدنه, ويعذب نفسه بلبس الصوف, ويمنعها الماء البارد, وما هذه طريقة الرسول صلى الله عليه وسلم, ولا طريق أصحابه وأتباعهم.

الباب العاشر: تلبيس إبليس على الصوفية

التصوف طريقة كان ابتداؤها الزهد الكلي, ثم ترخص المنتمون إليها في السماع والرقص, فمال إليهم طلاب الآخرة من العوام لما يظهرونه من التزهد, ومال إليهم طلاب الدنيا لما يرون عندهم من الراحة واللعب.

وقد لبس إبليس عليهم في أشياء, ثم لبس على من بعدهم من تابعيهم, وكلما مضى قرن زاد طمعه في القرن الثاني, فزاد تلبيسه عليهم إلى أن تمكن من المتأخرين غاية التمكن.وكان أصل تلبيسه عليهم أنه صدهم عن العلم,..فلما أطفأ مصباح العلم عندهم تخبطوا في الظلمات.

فمنهم من أراه أن المقصود ترك الدنيا في الجملة فرفضوا ما يصلح أبدانهم..وبالغوا في الحمل على النفوس...وهؤلاء كانت مقاصدهم حسنة غير أنهم على غير الجادة, وفيهم من كان لقلة علمه يعمل بما يقع إليه من الأحاديث الموضوعة وهو لا يدري.

ثم جاء قوم أقوام فتكلموا لهم في الجوع والفقر والوساوس والخطرات.

ثم تشعبت بأقوام منهم الطرق, ففسدت عقائدهم, فمنهم من قال بالحلول, ومنهم من قال بالاتحاد.

وما زال إبليس يخبطهم بفنون البدع حتى جعلوا لأنفسهم سنناً

وجاء أبوعبدالرحمن السلمي..فجمع لهم حقائق التفسير, فذكر عنهم فيه العجب من تفسيرهم القرآن,..وصنف لهم السراج كتاباً سماه "لمع الصوفية " ذكر فيه من الاعتقاد القبيح والكلام المرذول..وصنف لهم أبو طالب المكي "قوت القلوب" فذكر فيه الأحاديث الباطلة وما لا يستند إلى أصل من صلوات الأيام والليالي, وغير ذلك من الموضوع, وذكر فيه الاعتقاد الفاسد.

-(٢١)

وجاء أبو نعيم الأصبهاني فصنف لهم كتاب "الحلية" وذكر في حدود التصوف أشياء قبيحة ولم يستحي أن يذكر في الصوفية أبا بكر وعمر وعثمان وعلياً وسادات الصحابة...وكذلك ذكر السلمي في "طبقات الصوفية" الفُضيل وإبراهيم بن أدهم ومعروفاً الكرخي وجعلهم من الصوفية بأن أشار إلى أنهم من الزهاد.

والتصوف مذهب معروف يزيد على الزهد, ويدلُّ على الفرق بينهما أن الزهد لم يذمه أحد, وقد ذموا التصوف.

وصنف لهم عبدالكريم بن هوزان القُشيري كتاب "الرسالة " فذكر فيها العجائب من الكلام في الفناء والبقاء والقبض والبسط والوقت والوجد والصحو والسكر والمحو والمكاشفة..إلى غير ذلك من التخليط الذي ليس بشيء وتفسيره أعجب منه

وجاء محمد بن طاهر المقدسي فصنف لهم " صفوة التصوف" فذكر لهم فيها أشياء يستحيي العاقل من ذكرها.

وجاء أبو حامد الغزالي فصنف كتاب " الإحياء " على طريقة القوم وملأه بالأحاديث الباطلة وهو لا يعلم بطلانها وتكلم في علم المكاشفة...وقال في كتابه "المفصح بالأحوال" إن الصوفية في يقظتهم يشاهدون الملائكة وأرواح الأنبياء ويسمعون منهم أصواتاً ويقتبسون منهم فوائد, ثم ترقى الحال من مشاهدة الصورة إلى درجات يضيقُ عنها نطاق النطق.

وكان السبب في تصنيف هؤلاء هذه الأشياء قلة علمهم بالسنن والآثار.

قال السراج: وأنكر جماعة من العلماء على أبي سعيد أحمد ابن عيسى الخراز ونسبوه إلى الكفر بألفاظ وجدوها في كتاب صنفه وهو " السر "

وقد جمعت في أخبار الحلاج كتاباً بينت حيله ومخاريقه وما قال العلماء فيه.

وقد ذكرنا تلبيسه على العباد في الطهارة إلا أنه قد زاد في حق الصوفية على الحد, فقوى وساوسهم في استعمال الماء الكثير

وقد ذكرنا تلبيسه على العباد في الصلاة, وهو بذلك يلبس على الصوفية, ويزيد, وقد ذكر محمد بن طاهر المقدسي أن من سننهم التي ينفردون بها وينتسبون إليها صلاة ركعتين بعد لبس المرقعة والتوبة.

قد بينا أنه كان أوائل الصوفية يخرجون من أموالهم زهداً فيها, وذكرنا أنهم قصدوا بذلك الخير إلا أنهم غلطوا في هذا الفعل, لما ذكرنا من مخالفتهم بذلك الشرع والعقل, فأما متأخروهم فقد مالوا إلى الدنيا وجمع المال من أي وجه كان, إيثاراً للراحة وحباً للشهوات.

من الصوفية من يلبس الصوف ويحتج بأن النبي صلى الله عليه وسلم لبس الصوف, وبما روي في فضيلة لبس الصوف.

فأما لبس رسول الله صلى الله عليه وسلم الصوف فقد كان يلبسه في بعض الأوقات, ولم يكن لبسه شُهرة عند العرب.

وأما ما يروى في فضل لبسه فمن الموضوعات التي لا يثبت منها شيء.

وقد كان السلف يلبسون الثياب المتوسطة لا المرتفعة ولا الدون, ويتخيرون أجودهما للجمعة والعيد ولقاء الأخوان, ولم يكن تخير الأجود عندهم قبيحاً.

واعلم أن اللباس الذي يُزري بصاحبه يتضمن إظهار الزهد, وإظهار الفقر, وكأنه لسان شكوى من الله تعالى, ويوجبُ احتقار اللابس كل ذلك مكروه منهي عنه.

وقد كان في الصوفية من يجعل على رأسه خِرقة مكان العمامة, وهذا أيضاً شهرة, لأنه على خلاف لباس أهل البلد, وكل ما فيه شهرة فهو مكروه.

قد بالغ إبليس في تلبيسه على قدماء الصوفية, فأمرهم تقليل المطعم وخشونته, ومنعهم شرب الماء البارد, فلما بلغ إلى المتأخرين استراح من التعب, واشتغل بالتعجب من كثرة أكلهم ورفاهية عيشهم.

فصل:

قلت علوم هؤلاء فتكلموا بآرائهم الفاسدة, فإن أسندوا فإلى حديث ضعيف أو موضوع, أو يكون فهمهم منه رديئاً, ولقد عجبت لأبي حامد كيف نزل مع القوم من رتبة الفقه إلى مذاهبهم.

فوائد متفرقة:

* من تأمل حال ابن الريوندي وجده من كبار المُلحدة, وصنف كتاباً سماه" الدامغ" زعم أنه يدمغ به الشريعة, فسبحان من دمَغَهُ فأخذه وهو في الشباب, وكان يعترض على القرآن, ويدعي عليه التناقض وعدم الفصاحة, وهو يعلم أن العرب تحيرت عند سماعه فكيف بالألكن.

* أبو العلاء المعري أشعاره ظاهرة الإلحاد, وكان يبالغ في عداوة الأنبياء, ولم يزل متخطباً في تعثره خائفاً من القتل إلى أن مات بحسراته.

* منبع غيبة الهمج والجهال من إشفاء الغيظ, والحمية, والحسد, وسوء الظن, وأما منبع غيبة العلماء فمنبعها من خدعة النفس على إبداء النصيحة.

* من لم يطلع على..سير السلف..لم يمكنه سلوك طريقهم.وينبغي أن يعلم أن الطبع لص فإذا ترك مع أهل هذا الزمان سرق من طباعهم فصار مثلهم, وإذا نظر في سير القدماء زاحمهم وتأدب بأخلاقهم.

* اعلم أن الوسوسة في نية الصلاة سببها خبل في العقل أو جهل بالشرع.

* إذا كان القصصُ صدقاً ويوجب وعظاً فهو ممدوح, وقد كان أحمد بن حنبل يقول: ما أحوج الناس إلى قاصٍّ صدوق.

*كم من ساكتٍ عن غيبة المسلمين إذا اغتيبوا عنده فَرِحَ قلبُه, وهو آثم بذلك من ثلاثة أوجه: أحدها: الفرح فإنه حصل بوجود هذه المعصية من المغتاب, والثاني: لسرور قبله بثلب المسلم. والثالث: إذا لم ينكر.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٣
الباب الأول: في الأمر بلزوم السنة والجماعة	٤
الباب الثاني: في ذم البدع والمبتدعين	٥
الباب الثالث: في التحذير من فتن إبليس ومكايده	٧
الباب الرابع: في معنى التلبيس والغرور	٨
الباب الخامس: في ذكر تلبيسه في العقائد والديانات	٩
ذكر تلبيس إبليس على الخوارج	١١
ذكر تلبيس إبليس على الرافضة	١٢
ذكر تلبيس إبليس على الباطنية	١٣
الباب السادس: في ذكر تلبيس إبليس على العلماء في فنون العلم	١٤
تلبيسه على القراء	١٤
تلبيسه على أهل اللغة والأدب	١٤
تلبيسه على الشعراء	١٤
الباب السابع: في ذكر تلبيس إبليس على الولاة والسلاطين	١٥
الباب الثامن: في ذكر تلبيس إبليس على العباد في العبادات	١٧
تلبيسه عليهم في الوضوء	١٧
تلبيسه عليهم في الآذان	١٧

تلبيسه عليهم في الصلاة	١٧
تلبيسه عليهم في قراءة القرآن	١٩
تلبيسه عليهم في الصوم	١٩
تلبيسه عليهم في الحج	١٩
تلبيسه على الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر	١٩
الباب التاسع: في ذكر تلبيس إبليس على الزهاد	٢٠
الباب العاشر: تلبيس إبليس على الصوفية	٢١
فوائد متفرقة	٢٥
الفهرس	٢٦